Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الشّبكة تلف أبا العِبَر وتغلّفه، فإذا به يصير سمكة، ينتقل (انظر كنيته) من حالة إلى حالة، من صفة الآدمية إلى صفة حيوان مائي. وعلى ما يبدو، فإنّ السّمكة تثير في النّفس هاجس التّعليب، أو التّداخل،[18] أي أنّ الشيء يكون بداخله شيء آخر، ويكون هو نفسه داخل شيء ثالث، وهكذا. فالجاحظ يقول عن السّمك إنّ «طبعها أنْ يأكل بعضها بعضاً».[19] فالسّمكة الصّغيرة تبتلعها سمكةٌ تفوقها في الحجم، وهذه بدورها تصير في جوف سمكة أكبر منها، ولا نهاية لعملية التّعليب هذه. إنّ من يفتح سمكةً يتوقّع، بكيفية شعورية أو لا شعورية، أنْ يجد بداخلها سمكةً أخرى، وقد يتوقّع أن يعثر في جوفها على خاتم، كما في قصّة النّبي سليمان، بل قد يتوقّع، إذا تعلّق الأمر بالحوت، أنْ يجد إنساناً، كما هو الشّأن في قصّة النّبي يونس.

ما يصدق على السّمك يصدق أيضاً على الكلام. فالكلام بدوره شاملٌ ومشمول، متضمّن ومتضمّن. إنّ مَنْ يتفحّص خطاباً يأمل أو يتحسّب أن يصادف في ثناياه خطاباً آخر. فالمجاز مبني على هذا التّحسب، بحيث إنّ القارئ ينتقل من معنى إلى معنى، من خطابٍ إلى خطاب. قل الشيء نفسه فيما يخصُّ الجناس التصحيفي (anagramme) : يُبدل نظام حروف كلمة، أو كلمات، بهدف تكوين كلمة جديدة، أو كلمات. وقد يكفي عقد فصل بين حروف الكلمة الواحدة لتوليد كلمتين اثنتين : «الكرامات»، عند الحريري، تتحول إلى «الكَرَى مات».[20] وقد سبق أن رأينا كيف تحولت كلمة «مجنون» عند أبي العِبَر إلى «مج نون»، وليس من الصّدفة أن يلتقي بالنّون في هذا المثال، فلقد تأكّد لدينا أنّه يهوى السّمك والتّداخل بين الكلمات.

ما هي يا ترى طريقته في صيد السّمك ؟ روى أحد معارفه ما يلي : «رأيتُ أبا العِبَر واقفاً على بعض آجام سُرَّ مَنْ رأى، وبيده اليسرى قوس جلاهق، وعلى يده

18) دوران، ص. 243 وما بعدها.

19) الجاحظ، IV، ص. 171.

20) الحريري، ص. 392.